الكلمة المفتاح في الخطبة الشقشقية للإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة

أ.م.د.مرتضى عباس فالح

كلية الآداب / جامعة البصرة

المقدمة :

الحمد لله الذي خلق الخلق ، وفضل بعضهم على بعض ، وجعل لمحمد وأهل بيته عليه وعليهم السلام – الفضيلة الكبرى والمنزلة العظمى دون سائر من خلق مَنْ خلقه والصلاة والسلام عليهم منتهى علم الله الذي لا منتهى له.

وبعد.....

بتوفيقه تعالى أُنجِز هذا البحث وأسأله تعالى أن يكون هذا الجهد باكورة طيبة لسلسلة من البحوث والدراسات في شتى الحقول المعرفية والثقافية والأخلاقية ، للحاجة الماسة في هذه الأيام الى نشر الفكر والثقافة الإسلامية الأصيلة في أنحاء العالم كافة . رغبتفي أن يكون البحثفي خطبة الإمام علي (عليه السلام) المعروفة بالخطبة الشقشقية وهي الخطبة الثالثة في كتاب نهج البلاغة ، الذي جمع فيه الشريف الرضي خطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين (عليه السلام) وبدأت بالتمهيد حيث تضمن أحقية الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة وتضمن أيضاً الكلمة المفتاح في النص وأهميتها في دلالاته.

وكان على شكل مباحث حيث تضمن المبحث الأول الدلالة اللغوية لبعض مفردات الخطبة من صرف ونحو ، ثُم المبحث الثاني الدلالة التأريخية للمفردات والعبارات الدالة على الشقشقة في خطبة الإمام (عليه السلام) ، ثُم المبحث الاخير وذكرت فيه السمات الفنية في الخطبة الشقشقية.

واعتمدت على عدد من المصادر ، ومن تلك المصادر بعض الشروح الخاصة بنهج البلاغة ، ومنها شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وشرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ، فضلا عن مصادر أخرى .

والله ولي التوفيق

التمهيد :

أولاً : أحقية الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة.

لما اكتملت الرسالة الشريفة ، ورسخت قواعد الاسلام في الأمة وبلغت الأحكام بأحسن وجه، وأدى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كل المفاهيم الاسلامية الى أصحابه ، وانتهت الشريعة الى غايتها ، فلم يبقَ في ذمة الرسول الأكرم الاّ غاية واحدة مهمة وخطيرة تخصّ مستقبل الاسلام والامة وسعادة المسلمين ، ألا وهي الوصاية والخلافة التي أكّدها الوحي بالقرآن المجيد في آية التبليغ :((**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**))[١].

ونزلت هذه الآية في (حجة الوداع) في السنة العاشرة للهجرة التي حجها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع سبعين ألفاً من الصحابة ، ولما نزلت هذه الآية بلغه الوحي عن الله سبحانه أن ينصب علياً (عليه السلام) خليفة على المسلمين من بعده ، ويعقد له البيعة في حياته في ذلك المكان الذي نزلت فيه الآية الكريمة ، وفعلاً جمع الرسول (صلى الله عليه وآله) أصحابه في ذلك المكان بالقرب من غدير اسمه (غدير خم) على مفرق طرق الحجاج ، وفي حر الهجير أوقفهم وخطب بهم ، ثم قال :

((**هذا الوحي نزل بهذه الآية وأمرني ربي أن أولي عليكم من بعدي علياً ، فهو خليفتي ووصيي وحافظ سري ومبلغ رسالتي وهو يؤدي عني ديني وينجز عداتي...**))[٢] وبعد هذه الكلمات المباركة نصب الرسول (صلى الله عليه وآله) الإمام علياً (عليه السلام) خليفة للمسلمين من بعده.

ومن الآيات النازلة في حق الإمام علي (عليه السلام) قوله تعالى :((**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِينَ فْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّه وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**))[٣].

وقوله تعالى : ((**الْيَوْمَ أَكْمَلْت لَكُم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيت لَكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً**))[٤].

وهذه الآية إتفق المفسرون جميعاً على نزولها في حجة الوداع ، وقبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) بشهور ، وبعد أن تشير الآية ليأس الكفار من إلحاق الضرر بالإسلام ((الْيَوْم يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ)) تؤكد إكمال الدين في ذلك اليوم وإتمام النعمة على المسلمين.

إن الإسلام بهذا قد بلغ كماله بتعيين خليفة للنبي (صلى الله عليه وآله) وقد تمّ هذا التعيين حين رجوع النبي من حجة الوداع. فقد جمع الحجاج كلهم في موضع يقال له (غدير خم) ، وخلال القائه خطبته الطويلة عليهم ، سألهم :

((**ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى**)) فالرسول (صلى الله عليه وآله) أعرف بمصلحة المسلمين من أنفسهم ولذلك اختار الإمام علياً (عليه السلام) ورفعه أمام الناس وقال : ((**من كنت مولاه فعلي مولاه**)) وبهذا أثبت للإمام علي (عليه السلام) الولاية الإلهية فبايعه جميع الحاضرين ومنهم الخليفة الثاني الذي هنأه بقوله : ((**بخ بخ لك يا علي ،أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة**)).

وبعد نزول الآية الشريفة كبّر الرسول (صلى الله عليه وآله) وقال : (تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي) فكل هذا يدل على أن الإمام (عليه السلام) هو الخليفة من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[٥].

شارك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك ، فلما أراد أن يخرج من المدينة ويلتحق بالجيش عينّ علياً بن أبي طالب (عليه السلام) مكانه حيث لم يسلم من لسان المنافقين وإتهاماتهم الباطلة في ذلك الوقت حيث قالوا بأنه ترك علياً (عليه السلام) وأبعده عنه ، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أظهر فضل الإمام علي (عليه السلام) ومقامه في حديث المنزلة حيث قال : ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا ّأنه لا نبي بعدي))[٦] .

والنائب لأي شخص يجب أن يكون مماثلاً لذلك الشخص ، فخليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يجب أن يماثل الرسول من حيث العلم والعمل بحيث لو رآه أي شخص فكأنما رأى الرسول ، وكما يجب أن يكون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عالماً بالأحكام فكذلك الإمام يجب أن يعرف الأحكام التي يسأل عنها ، فالإمام (عليه السلام) وهو ربيب الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمين سره ، وخازن علومه وأزهد الناس وأتقاهم وأورعهم في دين الله ودنيا الناس بعده .

ثانياً : الكلمة المفتاح في النص وأهميتها في دلالاته.

الكلمة من حيث هي وجود تمثل النشأة الإنسانية في قوله تعالى في خطابه لمريم (عليها السلام) : ((**إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**))[٧] ومن هنا تكون شهادة بالوجود ذاته ، لا تكذيباً به.

وبهذا فالكلمة موضوعة لإحقاق الحق والعمل من أجله ولكن هناك قوم يجعلون الكلمة في الباطل ولن يفلحوا ؛ لقوله تعالى : ((**أَلَم ْتَر َكَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء{٢٤} تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّت ْمِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**))[٨].

فالكلمة وجود وضرورة إنسانية ؛ تعبر عن قيمتها وأهميتها بذاتها من دون تباطؤ أو انحراف ، وهي بهذا المفهوم الصورة المثلى لمقاصد القوم ومشاعرهم من أجل إثبات الحق وإظهاره وبها تحفظ مجموعة القيم التي يتواضع عليها الناس ، وتبقى الكلمة وحدها هي الفاصلة والفيصل بين الخبيث والطيب ومن هذا يتبين لنا أنّ هناك كلاماً يحتوي على الحق وهناك كلام يحتوي على الباطل.

وقد كانت في بدء النشأة واحدة ثم انتشرت في إطار عملية الإصطفاء وتلبية التعبير عن الحاجات والمشاعر ، وحين استمرت العملية الإجرائية في صميم التطور الإجتماعي والإرتقاء الفكري كانت الكلمات تتابع تطورها في البيئات كلها حتى تباينت ونشأت منها اللغات العديدة.

ولا بُدّ من الإشارة هنا الى رولان بارت وتعريفه العناوين – والتي تعدّ مفاتيح للنصوص – بقوله : ((هي عبارة عن أنظمة دلالية سيميوجية تحمل في طياتها قيماً أخلاقية واجتماعية وايدلوجية))[٩].

وهذا يجعل مما تقدّم شبكة دلالية يفتتح بها النص ، وتكون نقطة الانطلاق في النص [١٠] وهذا يُعد تسمية للنص وتعريفاً به ، فضلاً عما يكشفه من دلالات في النص[١١] .

ويعدّ ذلك مفتاحاً للنص ، وللولوج في دلالاته ومعانيه ، فالعنوان بوصفه مفتاحاً لذلك ، هو ((مفتاح تقني يحبس به السيميولوجي نبض النص وتجاعيده وترسانته البنيوية وتضاريسه التركيبية على المستويين الدلالي والرمزي))[١٢] وهنا نلاحظ ما ورد من مصطلحات علمية في التعريف التي تنبئ عما في النص من مواطن الدلالة والمعنى وبمستويات متفاوته [١٣] .

إنّ للعنوان أو الكلمة المفتاح التي تُعد عنواناً للنص في كثير من الاحيان كثيراً من الوظائف المتمثلة بالإيحاء الدلالي ، والكشف عن مكنونات المعاني ، وهذا مما يسهم في الوقوف على مكنونات النص التي جُعل العنوان مفتاحاً لها [١٤] ، ويتابع د. خالد حسين قوله بشأن ما يكون عنواناً داخلياً في النص ، ومنه يمكن الانطلاق الى دلالات النص ، فيقول : ((نقصد بالعنوان الداخلي أو العناوين الداخلية تلك التي بمقتضاها يمفصل الكاتب الشريط اللغوي ، أو مساحة النص اللغوية بعضها عن بعض لغايات مختلفة بمؤشرات لغوية أو طباعية ، هي في العموم تؤدي وظائف مشابهة ومتماثلة لما يؤديه العنوان العام))[١٥] .

وهذا مؤشر واضح وصحيح في إمكانية أن يكون العنوان داخلياً ضمن النص ، ثمَّ يشكل أهمية كبيرة في أن يكون مفتاحاً لمغاليق ذلك النص . وهذا ما أشار إليه د. محمد مفتاح بقوله : ((يقدّم لنا العنوان معونة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه))[١٦] .

ولعلّ ذلك يكشف عن إنطلاق الكلمة العنوان من داخل النص ويضمّه من شبكات دلالية ، ولتكون تلك الكلمة مفتاحاً لما غمض وتعسر فهمه من المعاني في تلك النصوص .

لا يخفى أنَّ اللغة العربية يعبر بها العرب وغيرهم أيضاً عن مشاعرهم وحاجاتهم ومقاصدهم بأساليبها المتنوعة ، والكلمة في العربية تقوم على معانٍ نحوية وصرفية وصيغ بلاغية لا نظير لها في اللغات الأخرى وكلما تأمل فيها الباحث العارف والعالم بأسرارها وأدرك أشاراتها وغاياتها البعيدة والقريبة تأكد له ذلك [١٧] .

ويطالعنا قول الإمام علي (عليه السلام) : ((**تلك شقشقة هدرت ثم قرت**)) ((الشقشقية)) التي جاءت أصلاً من مناسبة صدور هذه الكلمة من الإمام (عليه السلام) عند قراءتها ((حين سأله ابن عباس أن يمليه إياها ليحفظها قائلاً : يا أمير المؤمنين لو أطرت خطبتك من حيث أفضيت؟ فقال : هيهات يا ابن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرت ، والشقشقة بكسر فسكون فكسر شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ... .

فكانت تحمل موسقة واضحة من جراء تكرار الشين والقاف لمجيئها منحوتة بالشقشقية لتصبح تسمية نهائية متداولة أثر في توضيح وجهتها الجمالية لاسيما في ضوء ما نشير إليه من إشارة سياقية حول مناسبتها ، حيث تعكس إجابة الإمام المرتجلة عن سؤال المتلقي المعجب بالخطبة))[١٨] .

ويقال : إن الشقشقة لهاة البعير ويقال : للخطيب شقشقة إذا كان ذلك الخطيب صاحب رؤية وبضاعة من الكلام [١٩].

وفضلاً عن ذلك فالشقشقة بالكسر تعني أن فيهما شيئاً يخرجه البعير من فيه إذا هاج وإذا قالوا للخطيب ذو شقشقة فإنما شبهوه بالفحل ، والهدير : صوتها [٢٠].

والشَّقْشِقَةُ : لهاة البعير ولا تكون إلا للعربي من الإبل ، والجمع الشقاشق ومن ذلك سمي الخطباء شقاشق ، شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر. وجاء في حديث الإمام علي (عليه السلام) : ((**أنَّ كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان**)) ، فجعل للشيطان شقاشق ونسب الخطب إليه لما يدخل في الشقائق من الكذب ، ويشار الى تشبيه الذي يتفيهق في كلامه ويسرده سرداً فلا يبالي ما قال من صدق أو كذب بالشيطان وإسخاط ربه ، والعرب تقول للخطيب الجهر الصوت الماهر بالكلام : أهرت الشقشقة وهريت الشدق [٢١].

المبحث الأول

الدلالة اللغوية لبعض مفردات الخطبة

ومن تلك الدلالات :

(**والله لقد تقمصها**) ((جملة لا تقال إلا فيما كان المخاطب طالباً بالنسبة متحيزاً فيها ، وهكذا الحال فإنه (عليه السلام) قال لمن تحير في أمر الخلافة أهم بالحق أم لا ؟ أو تنزل العالم بها منزلة المتجر.

إنه ليعلم : فيه ثلاث فوائد :

أولاً : تنزيل فلان العالم بالحال منزلة الجاهل المنكر المصر وتنزيل المخاطبين العالمين منزلة المنكرين ، ولذا صدّر الجملة بـ(أن واللام) المؤكد للتحقيق.

الثاني : أنه قد أورد المعنى المراد في الجملة الفعلية الدالة على التجدد ، وعلى أن هذا العلم قد حصل له بالنصب من رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ثالثاً : أنه قد أتى بالفعل للإستقبال بعد أن ذكر فاعله ، ليدل على الإستمرار والثبوت ويجدد العلم لحظة فلحظة. والضمير في (تقمصها) راجع الى الخلافة))[٢٢].

((**ان محلي منها محل القطب من الرحا**)) ((قطب : قطب الشيء يقطبه قطباً جمعه وقطب يقطب وقطوباً ، فهو قاطب وقطوب ، وقد يجيء فاعل بمعنى مفعول ، كعيشة راضية ؛ والأحسن أن يكون فاعلاً ، على بابه من قطب المخفقة.

والقطاب : المزاج وكل ذلك من الجمع ، جاء القوم بقطبهم أي بجماعتهم وجاؤوا أقاطبة أي جميعاً ؛ قال سيبويه لا يستعمل إلا حالاً ، وهو اسم يدل على العموم قال الليث : قاطبة اسم يجمع كل جيل من الناس))[٢٣].

((قطب الرحى فيه ثلاث لغات : قُطْبُ وقَطْبُ وقِطابُ ، والقطيبة : نصل الهدف ، وتقول : جاء القوم قاطبة ، أي جميعاً ؛ وهو اسم يدل على العموم.

يقول ابن الأعرابي : القطيبة ألبان الإبل والغنم يخلطان وقطب الشراب واقطبه بمعنى ، أي مزجه ، والإسم القطاب ، والقطب أيضاً : القطع))[٢٤].

(((أما والله) ((أما)) للتنبيه ، والواو للقسم ، والهاء في الخلافة لدلالة الحال . وسنرسل في توضيح بعض تلك الدلالات اللغوية هنا وقوله (عليه السلام) (وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى) فالهاء في (إنه) تعود على الخليفة أبي بكر في معرض الحديث عنه وعن إصراره على الخلافة وهي حق غيره ، فصدر العبارة بـ(أن) المقترنة بالضمير الدال على المقصود من الكلام (الهاء) ، ليقصر الأمر عليه دون غيره ، ثم عمد الى الفعل فلم يدعه يؤدي الدلالة بلفظة فحسب فتكون اللفظة (يعلم) فقط ، وإنما لجأ الى اللام المؤكدة وجاء مرة بمؤكد في قوله (أن محلي) وهذه المرة جاء التأكيد على المكانة بعد أن تم التأكيد على هوية القائم بالفعل ونسبة الفعل اليه ليأتي التأكيد على المحل (محلي) أخيراً ، وهو عماد القضية المراد توكيدها))[٢٥].

والواو الواقعة في جملة (وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا) هي واو الحال [٢٦] ، (ينحدر عني السيل) ((جملة استئنافية دالة على الجواب عمن سأل عن كمية كون محله منها محل القطب من الرحا.

الفاء في (رأيت وصبرت) ((للسببية الدالة على أن الرؤية بسبب البصر))[٢٧].

((ومن الدلالات الأخرى قوله (عليه السلام (وطويت عنها كشحاً) كشح : والجمع كشوح لا يكسر إلا عليه قال أبو ذؤيب :

كان البياض كشوح النسا ء ، يطفون فوق ذراه جنوحا

الكاشح : العدو المبغض والأمم الكشاحة ، وكاشحه بالعداوة مكاشحة وكشاحاً ، قال المفضل الضبي : الكاشح لصاحبه مأخوذ من المكشاح ، وهو الفأس ، والكشح بالتحريك داء يصيب الإنسان في كشحه فيكوى))[٢٨].

ويمكن هنا تسجيل (التكرار المزدوج) على أنه ظاهرة صوتية غالبة ومهيمنة في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ تماثل تركيبة صيغة اخرى ، كما في قوله : (أصول بيد جذاء تقابلها أصبر على طخية عمياء) مع ملاحظة الفرق الذي يحمله هذا التماثل زيادة أو نقصاناً وأحياناً يعمد الإمام (عليه السلام) الى جعل هذا التناظر متعدياً الى ثلاث صيغ او أربع.

هنا يتصاعد الإيقاع بناء على نسبة التماثل بين الإنموذج الأول (الأصل) والإنموذج الثاني (المكرر) ، بمعنى (أصول وأصبر) تماثل إيقاعي في الصيغة الصرفية ، مع أختلاف في البنية الصوتية أي في

الاصوات (الحروف) التي تتكون منها الأفعال ، ويأخذ الإختلاف بمعاينة حرف الجر في الاولى وهو (الباء) ، الذي تغير في الثانية الى (على) ، والزيادة واضحة ، وأما في الكلمة الأخيرة فيأخذ التماثل بالتصاعد ، فمع التساوي في عدد الحروف (ج ، ذْ ، ذَ ، ا ، ء) = (ع ، م ، ي ، ا ، ء) فضلاً عن ذلك فحركة كل حرف تشابه حركة الحرف الاخر[٢٩].

((ويجدر الوقوف بناء على مفردة (هاتا) الواردة في عبارة (فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى) مشيراً بـ(هاتا) الى قضية الخلافة التي تقمصها مَنْ ليس له حق فيها في رأيه إذ يشار الى المؤنثة بـ(ذي) و(ذه) بسكون الهاء (وتي) و(تا) وقد أستعمل (تا) مسبوقة بـ(ها) التي تستعمل للتنبيه في حركة ملفتة تنتمي الى المنظومة الغرائبية التي تتوزع في سياق النص))[٣٠].

واما الواو في قوله (عليه السلام) (فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى) فهي للحال [٣١].

وبتأمل قول الأعشى :

شتان ما يومي على كورها

ويوم حيان أخي جابر

ويلاحظ ان شتان : اسم فعل بمعنى بعد تقول : شتان زيد ، وبكر أي بعد ما بينهما ، و(ما) زائدة) ويومي الاول فاعل، والثاني عطف عليه ، (فيا عجبا!!) أي يا عجبي أحضر.

بين : تستعمل لظرف المكان مثل جلست بينهما ، ولظرف الزمان مثل بين الطلوعين والألف في (بينا) عوض عن كلمة أوقات المحذوفة ، أي بين أوقات الإستقالة منها عقدها لغيره.

وفي عبارة (لشد ما تشطر ضرعيها) نجد اللام زائدة للتوكيد وشد فعل ماضٍ [٣٢].

وما مع الفعل بعدها في تقدير المصدر وهو فاعل (شد)[٣٣].

ويلاحظ أنَّ كلمة (تقحم) قحم : زعم يعقوب هنا أن ميمها بدل من باء (قحب)، والإسم القحامة وهي من المصادر التي ليس لها أفعال [٣٤].

قحم : شيخ قحم، أي هم مثل فحلٍ.

قحم في الأمر قحوماً : بمعنى رمى بنفسه فيه من غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة ، والمقحم بفتح الحاء : البعير الذي يربع ويثني في سنة واحدة ، فيقحم سناً على سن.

والمقحام : الفحل الذي يقتحم الشول من غير إرسال فيها [٣٥].

وقوله (عليه السلام) : (((**لعمر الله**) عمر : مبتدأ والخبر محذوف وجوباً أي ((لعمر الله قسمي ، والمعنى أقسم بدوام الله واذا حذفت اللام تعين نصب عمر على المصدرية))[٣٦].

(((شماس) شمس : الجمع شموس وتصغير الشمس : شميسة ، وشمس يشمس شموساً وشمس يشمس ، هذا القياس ؛ وقد قيل : يشمي في آتي شمِس ، ومثله فضل يفضل ؛ قال ابن سيده : هذا قول أهل اللغة والصحيح عندي أن يشمس آتي شَمَسَ ، والجمع شموس ، قول أبي صخر الهذلي :

قصار والخطى شم ، شموس عن الخنا

خدال الشوى ، فتخ الاكف ، خراعب

جمع شامسة شموس كقاعدة وقعود ، كسره على حذف الزائد ، وقد يكون جمع شموس وقد كسروا فعليه على فعول.

والشماس من رؤوس النصارى : الذي يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة ، قال ابن سيدة : وليس بعربي صحيح ، والجمع شمامسة ، ألحقوا الهاء للعجمة أو للعوض))[٣٧].

ويلاحظ في قوله (عليه السلام) (فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم) رأى الرضي غرابة في هذا التركيب ولهذا فسره بقوله (كراكب الصعبة أن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم) فالغرابة التي وجدها الرضي في هذا النص إنما سببها كثرة الحذف فيه فلقد حذف الإمام (عليه السلام) للإيجاز وتقوية الكلام.

والنص من غير حذف يكون على النحو الآتي : (كراكب الناقة الصعبة إن أشنق لها الزمام خرم أنفها وإن أسلس لها القياد تقحمت به الناقة الطريق الوعرة).

فالمحذوفان في النص هما : موصوف استغنى بصفته عنه ، وهي (الناقة) ومفعول (استغنى) عنه بإيحاء السياق في (أشنق) وهو الزمام ، ومفعول حذف للإيجاز ، سبب دلالة الفعل (خرم) وسبب لفظة (الزمام) أيضاً ؛ لأنه لا يكون لا في أنف الناقة ، وأما المفعول المحذوف فهو (الأنف) الذي دل عليه ما يكتنفه والمفعول الثالث الذي حذف هو : (القياد) استغناء عنه بما وطأ به من ألفاظ (أشنق وخرم وأسلس) فصار فهمه يسيراً على السامعين وهو (القياد) وقد حذف في هذا النص مفعول الفعل (تقحم) وتقديره (تقحم الطريق الوعرة) [٣٨].

وقوله (عليه السلام) : ((**لكني أسففتَ إذا أسفوا**)) سففتَ : سففت السويق والدواء ونحوهما بالكسر أسفه أسفاً وسَفوُفُ ، بفتح السين والاسم السُّفّة والسُّفُوفُ ، سَفّ ؛ والسَّفوف اسم لما يُسَف ، وسَففتُ الخصوص أسُفُّه ، بالضم ، سَفا وأسففتُه أي نسجته بعضه في بعض ، قال ابن منظور : ((سَفْفتُ الخصوص بغير الف ، معرفة صحيحة))[٣٩] ، وقال الإمام علي (عليه السلام) : ((**فصفا رجلٌ منهم لضغنِهِ ، ومالَ الآخر لصهرِهِ ، مع هَنٍ واهَنٍ ...**))[٤٠].

و(هن) على وزن أخ كلمة كناية من شيء قبيح وأصله (هنو) فإذا قلت هذا هنك أي شينك[٤١].

وفي قوله (عليه السلام) : ((**فما راعني إلاّ والناس كَعُرفِ الضّبُعِ إليّ ، ينثالون علي من كل جانبٍ ، حتى لقد وُطِئ الحسنانِ ، وشُقَّ عِطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلّما نهضتُ بالأمر نكثتْ طائفةٌ ، ومرقت أخرى ، ومسط آخرون ، كأنهم لم يسمعوا كلام اللهِ حيث يقولُ : ((تِلْكَالدَّارُالْآخِرَةُنَجْعَلُهَالِلَّذِينَلَايُرِيدُونَعُلُوّاًفِيالْأَرْضِوَلَافَسَاداًوَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ))[٤٢]بَلَى واللهِ ! لقد سمعوها ووَعوها**))[٤٣] ، يلاحظ أن فاعل راعني محذوف أي شيء أو رابع ، والناس الواو هنا للحال ، وحرف الجر متعلق بمحذوف حال من الناس أي متزاحمين إلي ومجتمعين حال ثانية ، وبلى حرف جواب تبطل النفي ، وقد أبطلت (لم يسمعوا) ، و(أما) حرف انفتاح [٤٤].

((إن التناظر الإيقاعي الذي حكم منظومة الأفعال الواردة في الخطبة وأغلبها أفعال مضي ، سجل حضوراً إيقاعياً بارزاً عبر توالي هذه الأفعال التي ترتبط بالفاعل ضميراً متصلاً بالتاء نحو : (فسدلت ، طويت ، طفقت ، فرأيت ، فصبرت ، صرت ، أسففت ، طرت ، نهضت ، لألقيت ، لسقيت) . فتكرار الأفعال الماضية على النسق الذي أشر ينسجم مع التكرار الذي ضم الافعال المضارعة (ليعلم ، ينحدر ، يرقي ، أرتأي ، أصول ، أصبر ، يهرم ، يثيب ، يكدح... ألخ) تاركاً في نفس السامع أثراً شعرياً بترصيع الخطبة بهذه الأفعال الماضية المنتهية بتاء الفاعل والافعال المضارعة بضمائرها المختلفة بحسب مواقعها في النص))[٤٥].

المبحث الثاني

الدلالة التاريخية للمفردات والعبارات الدالة على (الشقشقة)

في خطبة الإمام (عليه السلام)

ذكر سابقاً أن الخطبة تتعرض بجميع فقراتها الى مسألة الخلافة بعد رحيل الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ، والمشكلات التي شهدها عصر الخلفاء ممن سبقوا الإمام (عليه السلام) ، ثم يتطرق النص صراحة الى أحقيته بالخلافة معرباً عن أسفه لخروج الخلافة عن محورها الأصلي والحقيقي الذي خطط له الإسلام والرسول (صلى الله عليه وآله).

ولابُدَ من ذكر بعض اللفظات الدالة على الشقشقة :

((**وإنه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى ، يتحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير**))

فالمقصود من قول الإمام (عليه السلام) : ((**وإنه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى**)) ان هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها في الحركة ويحول دون إنحراف مسارها دون تعثر بفعل المطبات التي تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين.

وقوله (عليه السلام) : ((**ينحدر عني السيل**)) يعني رفعة منزلته (عليه السلام) كأنه في ذروة جبل ، يتحدر عنه الى الوهاد والغيظان.

(لا يرقى إلي الطير) هذه أعظم في الرفعة والعلو من التي قبلها ؛ لأن السيل ينحدر عن الرابية والهضبة وأما تعذر رقي الطير فربما يكون للتلال الشاهقة جداً [٤٦].

ومن قوله (عليه السلام) : ((**ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير**)) يتبين لنا أن الإمام (عليه السلام) استعار لنفسه وصفين :

أحدهما : كونه ينحدر عنه السيل وهو من أوصاف الجبل والأماكن المرتفعة جداً ، وكنى به عن علو منزلته وشرفه مع فيضان العلوم والتدبيرات السياسية وغيرها عنه واستعار لتلك الأوصاف لفظ السيل.

والثاني : كونه لا يرقى إليه الطير وهو كناية عن غاية من العلو والإرتفاع إذ ليس كل مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل وجب أنْ لا يرقى إليه الطير فكان ذلك علواً أكثر [٤٧].

وقوله (عليه السلام) : ((**فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً**)) تفيد هذه العبارة بوضوح أن رد فعل الإمام (عليه السلام) حيال تلك الحادثة لم يكن يتضمن الإستعداد والتأهب لخوض الصراع والإشتباك مع الآخرين ، بل تجاهل بكل بسالة وزهد ذلك .

فالإمام (عليه السلام) يكشف في هذه العبارة عن حقيقة وهي : انني لم أنس طرفة عين مسؤوليتي تجاه الأمة التي وضعها الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) على عاتقي [٤٨].

وفضلاً عن ذلك فـ((سدلت دونها ثوباً أي أرضيت تقول ضربت بيني وبينها حجاباً فعل الزاهد فيها الراغب عنها وطويت عنها كشحاً أي قطعتها وصرمتها ، وهو مثل قالوا لأن من كان الى جانبك الأيمن مثلاً فطويت كشحك الأيسر ، فقد ملت عنه والكشح ما بين الخاصرة والجنب وعندي أنهم أرادوا غير ذلك وهو من أجاع نفسه فقد طوى كشحه كما أن من أكل وشبع فقد ملأ كشحه فكأنه أراد أني أجعت نفسي عنها ولم ألتهمها))[٤٩].

ومعنى قوله (عليه السلام) : ((**فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى**)) فهاتان الجملتان كنايتان عن شدة ما أضمره من الأذى والغبن بسبب سلبه منه ما يرى أنه أولى به من أحدٍ غيره وما يعتقده من الخبط في الدين بيد غيره.

وقوله (عليه السلام) : ((**أرى تراثي نهباً**)) أراد الإمام بهذه العبارة التراث الذي خلّفه الرسول (صلى الله عليه وآله) لإبنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) كأرض (فدك) التي اغتصبت منها والتي يقصد بها انها ميراثه ؛ لأن مال الزوجة في حكم مال الزوج ؛ والنهب إشارة الى منع الخلفاء الثلاثة بالخير الذي رواه ابو بكر : نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة))[٥٠].

وهنا (الشجا) تعني ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه [٥١].

فالعبارة صورة واضحة عن ذروة إستياء الإمام (عليه السلام) وتذمره في تلك السنوات من المحنة والمصيبة ؛ بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها ، كما لم يسعه أن يرفع صوته ويعلن مدى حرقته وكيف لا يكون ذلك وتمثل الإمام (عليه السلام) بقول الأعشى :

شتان ما يومي على كورها

ويوم حيان أخي جابر

أراد أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأعظمهم منزلة وحرمة بل كنت نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) غير أنهم أقصوني بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التي لا تصلح إلا لي وليس هناك أحق بالخلافة أكثر مني فأخذوا يردون بها لمن يشاؤون [٥٢].

اما قوله (عليه السلام) : ((**(فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلْمها ، ويخشن مسّها ، ويكثر العناد فيها ، والإعتذار منها)** يقصد الإمام (عليه السلام) كلمها جرحها ، كأنه يقول : خشونتها تجرح جرحاً غليظاً ، ويقصد بالعثار : السقوط والكبوة))[٥٣].

والمراد بالحوزة هنا أخلاق الخليفة الثاني وصفاته فالواقع قد ذكر له أربع صفات أو إشارات:

الاولى : خشونته وعنفه التي عبر عنها بقوله (يغلظ كلمها) في إشارة الى الجروح الروحية والجسمية التي يفرزها الإصطدام به.

الثانية : الشدة في التعامل (وتخشن مسها) وعليه فالحوزة الخشناء قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين اللتين أشارتا الى العنف في الكلام والعنف في المعاملة.

الثالثة : هي كثرة الأخطاء لديه .

الرابعة :الإعتذار من تلك الأخطاء [٥٤].

ويلاحظ ((قول الإمام (عليه السلام) فجعلها في حوزة خشناء أي في جهة صعبة المرام شديدة الشكيمة ، والكلم : الجرح ، وقوله : يغلظ مَن الناس من قال : كيف قال : ((يغلظ كلمها))؛ والكلم لا يوصف بالغلظ ! وهذا قلة فهم بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغلظ فقال : ((وَنَجَّيْنَاهُممِّنْعَذَابٍغَلِيظٍ))[٥٥] أي متضاعف ... فلما كان العذاب أعاذنا الله منه – متضاعفاً سمى غليظاً إنْ قيل : قد قال (عليه السلام): ((**في حوزة خشناء ،فوصفها بالخشونة فكيف أعاد**))ذكر الخشونة ثانية فقال : ((**يخشن مسها**)) قيل : الإعتبار مختلف، لأن مراده بقوله : ((**في حوزة خشناء**)) أي لا ينال ما عندها ولا يرام يقال : إنَّ فلاناً لخشن الجانب ، ووعر الجانب ومراده بقوله : ((**يخشن مسها**)) أي تؤذي وتضر مَن يمسها ، يصف جفاء أخلاق الوالي المذكور ونفور طبعه ... وقوله (عليه السلام): ((**يكثر العثار فيها والاعتذار منها...**)) هي كطريق كثيرة الحجارة لا يزال الماشي فيه عاثراً وأما منها في قوله : ((**والإعتذار منها**)) فيمكن أن تكون (من) على أصلها يعني أن عمر كان كثيراً ما يحكم بالأمر ثم ينقضه وبفتى بالفتيا عنها ثم يرجع ويعتذر مما أفتى به أولاً ...))[٥٦].

وقوله (عليه السلام) ((فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم)) المقصود بالصعبة من الإبل : ما ليس بذلول والمقصود من قول الإمام (عليه السلام) صرم : قطع، وأسلس : أرضى ، وتقحم : رمى نفسه في القحمة أي في الهلكة [٥٧].

((القحم : الكبير المسن ، وقيل : فوق المسن مثل القحر والانثى قحمة والقحمة المسنة من الغنم وغيرها))[٥٨].

((أشنق البعير وشنقه كفه بذمامه حتى ألصق ذفراه (العظم الناتئ خلف الإذن) بقادمة الرجل أو رفع رأسه ولتشاكل أسلس ، وأسلس أرفى وراكب الصعبة اما أن يشنقها فيخرم أنفها واما أن يسلس لها فترقى في مهواه تكون فيها هلكته))[٥٩].

ويقصد (عليه السلام) بقوله (بخيطٍ وشماسٍ وتلون واعتراض) أربع ظواهر نفسية للأمة في عهد الخليفة الثاني وهذه الظواهر هي :

١- إن انشطتهم وقراراتهم طائشة ظهرت بسبب ظهور الفوضى في المجتمع.

٢- إنهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الإجتماعية.

٣- التلون المستمر وركوب الموجة والتخبط والإنسلاخ من فئة والإلتحاق بفئة أخرى وعدم إمتلاك الهدف المعين في الحياة.

٤- الإنحراف عن مسار الحق والسير على غير هدى [٦٠].

والشماس هي من الفرس الشموس ؛ أي الأبية الظهر العصبية فإذا أردنا في الوقت نفسه أن ننكر الغرابة في هذه اللفظة لجانبنا الصواب ، فهذه اللفظة غريبة نعم لكن غرابتها هناك لم تتأتِ من بداوتها أو كثر استعمالها ، فقد استعملت عند أهلها ، بل جاءت غرابتها هذه ببعد الإستعارات ، وعموم الإشارات وإختزال التراكيب التي وضعها الإمام (عليه السلام) في النص ، فجاءت – الغرابة – رافعة من شأن فصاحة كلمة ، مؤازرة لشأو نغمة [٦١].

وأضاف الإمام قوله : ((**لكني أسففت إذ أسفوا وطرت إذا طاروا**)) الطيور التي تطير على هيأة أسراب فتحلق أحياناً وتنخفض أحياناً أخرى الى الأرض وفي الحركتين تكون معاً ، وإن ما أراده الإمام علي (عليه السلام) من هذه العبارة هو توضيح دوره اني أدور مدار الحق واسعى خلفه لكني طلبت الأمر وهو موسوم بالأصاغر منهم ، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكابرهم ، أي هو حقي فلا أستنكف من طلبه [٦٢].

وقوله (عليه السلام) : ((**(فصغى رجل منهم لضغنه وقال الآخر لصهره مع هنٍ وهنٍ إلى أنْ قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثليه ومعتلفة**) قصد (عليه السلام) بقوله الضغن الضغينة يشير الى سعد ومال الآخر لصهره يشير الى عبد الرحمن (مع هنٍ وهنٍ) يشير الى أغراض أخرى يكره ذكرها ويقصد بثالث القوم عثمان وكان ثالثاً بعد إنضمام كل من طلحة والزبير وسعد الى صاحبه كما تراه في خبر القضية (ونافجاً حضنيه) رافعاً لهما ، والحضن ما بين الإبط والكشح ، والنثيل الروث، والمعتلف من مادة علف موضع العلف وهو معروف أي لا هم له إلا ما ذكر))[٦٣] .

وقوله (عليه السلام) : ((**انتكث عليه نملته وأجهز عليه كمله وكتب به بطنته**)) والواقع أن أمير المؤمنين (عليه السلام) رسم لنا ثلاث عبارات وضح فيها وضع عثمان وحاله وهي كالآتي:

الأولى : إزالته لكافة مظاهر القدسية والزهد التي عرفها عنه الناس.

الثانية : سوء أعماله التي وجهت له الضربة القاصمة.

الثالثة : تخمته وإمتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذي لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه [٦٤].

وقوله (عليه السلام) : ((**فلما نهضت بالأمر نكثت طائفةً ومرقت أخرى وفسق آخرون**)) فأما الطائفة الناكثة وهم أصحاب الجمل ، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صفين وسماهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) القاسطين ، وأما الطائفة المارقة فأصحاب النهروان وأشرنا نحن بقولنا سماهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) القاسطين الى قوله (عليه السلام) : ((**ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين**))، وهذا الخبر من دلائل نبوته (صلى الله عليه وآله) ، لأنه إخبار صريح بالغيب لا يحتمل التمويه والتدليس كما تحتمله الأخبار المجملة ، وصدّق قوله (عليه السلام): ((**والمارقين**)) قوله أولاً في الخوارج : ((**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**)) وصدّق قوله (عليه السلام) ((**الناكثين**)) كونهم نكثوا البيعة بادئ بدء وقد كان (عليه السلام) يتلو وقت مبايعتهم له : ((**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَايَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**))[٦٥] ، وأما أصحاب صفين ... فإنهم مخلدون في النار لفسقهم ...))[٦٦].

وفي قوله (عليه السلام) : ((**لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر**)) قيل : المقصود بحضور الحاضر من حضر لبيعة الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة من المهاجرين والأنصار وقيل : بل هو حلول الوقت الذي وقته الرسول (صلى الله عليه وآله) لقتال الإمام (عليه السلام) من بعده وقيل : هو غير ذلك ويبدو أن المراد بحضور الحاضر الوضع الحاضر ، وهو الفساد الذي كان منتشراً آنذاك.

(وقيام الحجة بوجود الناصر) أي لا حجة ولا عذر عن الله لكل من يسكت عن الفساد والضلال إذا وجد من يناصره ويؤازره والإمام (عليه السلام) بعد أن رأى الفساد في الأرض ، وبعد أن عرضت عليه الخلافة – أصبح من واجبه أن يقبل وينهض ويردع المفسدين ، ويرعى مصالح المسلمين [٦٧].

وقوله (عليه السلام) : ((**وراقهم زبرجها**)) المقصود بالزبرج معاني منها الوشي : والزبرج : الذهب ؛ والزبرج زينة السلاح ، والزبرج السحاب الدقيق فيه حمره ، والزبرج : السحاب النمر بسواده وحمره في وجهه.

وقيل : هو الخفيف الذي تسفره الريح [٦٨].

المبحث الثالث

السمات الفنية في الخطبة الشقشقية

تعدّ هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة حيث تتكفل بشرح وافي لمسألة الخلافة بعد رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وهناك كثير من الأمور التي تضمنتها هذه الخطبة ربما يخص الخلافة ورغم قلة

عباراتها إلا انها أوجزت عصر الخلافة الراشدة التي نهضت بالأمر بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقة التي تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين.

ويتحدث الإمام (عليه السلام) في العبارات الأخيرة للخطبة عن قضية مبايعة الأمة له والأهداف الكامنة وراء قبول البيعة بعبارات قصيرة غاية الروعة والبيان [٦٩].

هي من الخطب التي قل نظيرها إن لم تقل لا نظير لها في نهج البلاغة ؛ الأمر الذي يثبت أن الإمام (عليه السلام) قد أوردها في ظروف خاصة للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتخلد في التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحة تامة فقد أوضح الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة عدة أمور :

١- أحقيته وجدارته بالخلافة التي بينها بوضوح وهذه الحقيقة التي إتفق عليها تقريباً كافة المحققين المسلمين وغير المسلمين ، حتى إعترف معاوية وأعدى أعداء الإمام (عليه السلام) بأفضليته.

٢- مظلوميته (عليه السلام) رغم أحقيته وكفاءته.

٣- يفيد كلام الإمام (عليه السلام) عدم وجود مرجع واضح لإنتخاب أي من الخلفاء الثلاثة ، فضلاً عن المعايير المتعددة التي حكمت ذلك الإنتخاب ، فقد كانت خلافة أحدهم تستند الى رأي واحد ، وآخر لنصف من شورى سداسية وثالث لعدد من الآراء.

٤- إبتعاد الأمة في عصر الخلفاء عن تعاليم النبي (صلى الله عليه وآله) وتفاقم الأزمات على مرور الزمان ، بحيث كانت من أبلغ الصعوبات التي واجهت الإمام علياً (عليه السلام) حيث تولى الخلافة وتكمن من إعادة الامة الى القيم الإسلامية التي كانت سائدة في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله).

٥- إن التهافت على الدنيا والإغترار بزخرفها هو العامل الذي يقف على الفوضى والإضطراب والحروب التي نشبت في عهد الإمام (عليه السلام).

٦- إن ما حصل في عهد الإمام (عليه السلام) هو البيعة الحقيقية له (عليه السلام).

٧- لم يكن للإمام (عليه السلام) أية رغبة بالخلافة ولم يرها هدفاً قط ، بل هي وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل وبسط العدل والقسط.

٨- كانت الإنتفاضات التي حدثت في زمان عثمان والتي أدت الى قتله طبيعية جداً ونتيجة لسلوكه وبطانته من بني أمية الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم ولاة على بعض المناطق فعبثوا في بيت مال المسلمين وأسرفوا في تبذيره.

٩- كانت المعارك الثلاث – الجمل وصفين والنهروان – مفروضة على الإمام (عليه السلام) الى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

١٠- عدم إنسجام عقيدة تنزيه الصحابة وعدالتهم لمجرد صحبتهم مع أي من المعايير والوقائع التأريخية [٧٠].

فضلاً عن ذلك فإن مما يستدعي الإلتفات إليه في هذه الخطبة هو ظاهرة التوافقات الصوتية الموزعة على أكثر من محور ، والسجعات التي توزعت أيضاً على مستوى الكلمة ، أو الفقرة ، أو المقطع ، فعلى

صعيد التوافق في سجعات النص ضمن مستوى الكلمات نجد تحقق التجانس الصوتي بين الكلمات المتوافقة في السجعة بالحرف الأخير أو الحرفين الأخيرين مع تساوي عدد الحروف في كل كلمة ، ومن هذه السجعات (ثوباً – كشحاً وجذاء – عمياء وهاتا – أحجا والحاضر – الناصر).

ولم يكن التضاد الدلالي بعيداً عن ظاهرة التوافق الإيقاعي في النص فهو قد شكل توافقات مختلفة عززت هيمنة هذه الظاهرة على نحو متغير ضمن للنص حيوية إيقاعية تساعد في انشداد المتلقي الذي كان الإمام (عليه السلام) حريصاً على هذا النحو في مسألة خطيرة ما زالت مثار مناقشات وأحاديث ، وهي مسألة الخلافة وحقه فيها ومن هذه التوافقات المتضادة (ينحدر – يرقي وسدلت – طويت والكبير – الصغير وحياته – وفاته)[٧١].

((وقوله (عليه السلام) : ((**اما والله لقد تقمصها فلان**)) (تقمصها) إستعارة مكنية تخييلية ، مكنى بها عن أخذه الخلافة بتكلف لا باستحقاق مستلزمة لتشبيه الخلافة بالقميص ، ووجه الشبه إشتراكهما في التسلط عليهما وكونهما ممايزين المتخذ وهو عقلي))[٧٢].

وعبارة (ان محلي منها محل القطب من الرحا) فيها ثلاثة أنواع من التشبيه :

أ– تشبيه محله بمحل القطب من الرحا ، وهو تشبيه للمعقول بالمعقول.

وجه الشبه إنه (عليه السلام) أعدل الناس وأثبتهم على الجادة المستقيمة وأحسنهم قياماً في رعاية السياسة كما أن القطب أعدل من المحال وأقومها من الرحا.

ب– تشبيه نفسه بالقطب وهو تشبيه للمحسوس بالمحسوس.

وجه الشبه : إنه (عليه السلام) ممن يراعي نظم أمور الخلق ويجمع أموالهم المتفرقة.

ج– تشبيه الخلافة بالرحا ، تشبيه للمعقول بالمحسوس.

ووجه الشبه : إنهما مما يحفظ الناس أن يتطرق اليهم الخلل في المعاد ، كما أن الرحا مما يراعيهم أن يتطرق إليهم الخلل في المعاش وهو عقلي.

والغرض من هذه التشبيهات هو تقرير حال المشبه في نفس السامع وتقوية شأنه.

أما (ينحدر عني السيل) ففيها استعارتان :

الأولى : استعارة مكنية تخييلية مرشحة ، مكنى بها عن علو منزلته ، وهي مستدعية لتشبيه نفسه (عليه السلام) بالجبل وهما محسوسان.

الثانية:إستعارة تصريحية مرشحة : المراد بها عظم شأنه في العلوم والتدبير.

وعبارة (ولا يرقى إلي الطير) فيها إستعارة مكنية تخييلية مكنى بها عن غاية إرتفاعه وعلوه ان اجرينا الطير على حقيقته ، وهنا بين الإنحدار والرقي مقابلة ، وبين السيل والطير السجع المتوازي [٧٣].

وعبارة (فسدلت دونها ثوباً) (فسدلت) هنا فيها كناية عن نظره عنها[٧٤].

ويلاحظ في عبارة (طويت عنها كشحاً) إستعارة مكنية مكنى بها عن الإعراض مستدعية لتشبيه الخلافة بالمأكول.

ونجد في عبارة (في يد جذاء) إستعارة تصريحية المراد بها عدم الناصر ، مستدعية لتشبيه الناصر باليد المقطوعة [٧٥].

وفي (طخية عمياء) نسبة العمى اليها مجاز عقلي ، وإنما يعمى القائمون فيها إذ لا يهتدون الى الحق وهو تأكيد لظلام الحال وإسوادها[٧٦].

وفي (**يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن يلقى ربه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهباً**) نجد انه (عليه السلام) قد كنى عن شدة ذلك الإختلاط ومقاساة الخلق بسبب عدم إنتظام الأحوال من خلال :

الأول : يهرم فيها الكبير.

الثاني : يشيب فيها الصغير.

الثالث : ان المؤمن المجتهد في لزوم الحق والذي عنه يقاسي من ذلك الإختلاط شدائد ويكدح فيها حتى يلقى ربه ، وفضلاً عن ذلك نجد بين الكبير والصغير السجع المتوازي والترصيع والمقابلة [٧٧].

وقوله (عليه السلام) (أرى تراثي نهبا) كنى هنا عن الخلافة بالتراث وهو الموروث من المال [٧٨].

و(مضى لسبيله) كناية عن الموت فإنه سبيل لازم لكل إنسان والمضي فيه من لوازم الموت.

و(لشد ما تشطر ضرعيها) إستعارة تصريحية مستلزمة لتشبيه الخلافة بناقة حلوبة وهو تشبيه المعقول بالمحسوس.

وجه الشبه هنا : إشتراكهما في الإنتفاع الحاصل منهما ، وهو عقلي.

(فصاحبها كراكب الصعبة) وهذا تشبيه المركب بالمركب وقد ذكر أركان التشبيه : المشبه : (فصاحبها) المشبه به : (راكب الصعبة) أداة التشبيه : (الكاف) وجه الشبه : وهو المشار إليه بقوله (ان اشنق لها خرم وان أسلس لها تقحم).

وكلمة (ضبط) : إستعارة مكنية ، مكنى بها عن عدم جريان أفعاله وحركاته على الطريق الواجب ، أن تكون هي عليه مستلزمة لتشبيه أفعاله وحركاته بحركات البعير إذا سلك غير الجادة.

وجه الشبه : إشتراكهما في عدم الإنتظام.

(قام ثالث القوم) : كناية عن حركته في الخلافة وتلبسه بها .

وفي (بين نثيله ومعتلفة) : إستعارة مكنية تخييلية ، مكنياً بها عن أن قيامه بها للتوسع في المطعم والمشرب والتنعم دون ملاحظة أمور المسلمين مستدعية تشبيهه بالبهائم وهما محسوسان [٧٩].

ويظهر في قوله (عليه السلام) : ((**يختضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع**)) تشبيه هيأة أكلهم أموال المسلمين والتوسع فيها بهيأة أكل الإبل نبتة الربيع.

ووجه الشبه : أنهم يستلذون أكلها ويستكثرون منها بعد بؤسهم وفقرهم وإحتياجهم الى ما يسد رمقهم ويطيب في أنفسهم نضارتها وطراوتها بحيث يشغلهم عن أمور الآخرة ورعاية ما هو الواجب في الدين لئلا يقع في الهلاك ، كما أن الإبل تستلذ بنبت الربيع مع شدة إفتقارها الى ما يسد رمقها وكثرة جوعها اثناء الشتاء بحيث أشغلتها عن رعاية ما يصلح مزاجها ويحفظ نفسها حتى أكثرت منه وحللت بها ، وهو عقلي [٨٠].

وفي ((**والناس إليّ كعرف الضبع**)) شبه (عليه السلام) هيأة إقبالهم عليه من كل جانب في ازدحامهم بهيأة إزدحام عرف الضبع.

وجه الشبه هنا : أنهم حال إقبالهم (عليه السلام) متتابعين يتلو بعضهم بعضاً من قيام مزدحمين كما ان الضبع عرفه ذو شعر كثير مزدحم.

(مجتمعين حولي كربيضة الغنم) شبه إجتماعهم حوله (عليه السلام) باجتماع الغنم حول مربضها.

وجه الشبه : انهم غير متفطنين مما هو الأصلح لهم ، غافلون كما هو اللائق بهم غير مراعين قواعد الأدب والإحترام في هيأة إجتماعهم عليه ، كما أن الغنم لا تتفطن لما هو صالح لها ولا تراعي الأدب.[٨١].

وشبه (عليه السلام) إجتماع الناس حوله بربيضة الغنم ووجه التشبيه ظاهر.

ويحتمل أن يلاحظ في وجه التشبيه مع الهيأة زيادة وهي أنه شبههم بالغنم لغفلتهم عن وضع الأشياء في مواضعها ، مع قلة فطانتهم وعدم إستعمالهم للأدب معه ، مع ملاحظة أن العرب تصنف الغنم بالغباوة وقلة الفطانة [٨٢].

وفي عبارة (ومرقت اخرى) خصص الخوارج بالمروق لأن المروق هو مجاورة السهم للرمية وخروجه منها فاستعار لها لفظة المروق لمكان المشابهة ، وقد أخبر الرسول (صلى الله عليه وآله) عنهم بهذا اللفظ بقوله : ((**يمرقون في الدين كما يمرق السهم من الرمية**)) .

وفي يمرقون إستعارة تصريحية تبعية حيث شبه الخروج من الدين بسرعة بمروق السهم من الرمية ثم استعمل يمرق بمعنى يسرع على طريق الإستعارة التبعية.

((**فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون**))... فإنه (عليه السلام) لما أشار الى بغي الناكثين والقاسطين والمارقين أتبعه بقوله : كأنهم لم يسمعوا الله تعالى ، تنبيهاً على أن لازم سماع هذه الآية والتدبر فيها ترك البغي والفساد في الأرض فحيث لم يتركوه جعلوا بمنزلة غير السامع ثم رجع إليه ونقضه لنكثه وأبطل عدم السماع بقوله : بلى والله لقد سمعوها ووعوها مؤكداً بالقسم البار والنكثة تأكيد التقريع والتوبيخ وتشديد اللوم والذم بإظهار أن عدم إنتفاعهم بالسماع ، إنما هو لشدة إفتتانهم بالدنيا وما فيها وإغترارهم بزخارفها ، فاستحقوا بذلك الخزي العظيم والعذاب الأليم.

وفي (كظة ظالم ولا سغب مظلوم) (كظة ظالم) هنا كناية عن قوة ظلمه (سغب مظلوم) كناية عن قوة الظلامة.

ونجد في (لألقيت حبلها على غاربها) إستعارة مكنية تخييلية مرشحة ، مكنى بها عن الإعراض مستدعية لتشبيه الخلافة بالناقة وهو تشبيه المعقول بالمحسوس.

وجه الشبه : إشتراكهما في الإنتفاع الحاصل منهما ، وتخييل أنها فرد من أفراد الفوق وإلا لما صح إضافة الغارب اليها ، وبإلقاء الحبل على الغارب رشح الاستعارة [٨٣].

الخاتمة

كان البحث في موضوع ((الكلمة المفتاح في الخطبة الشقشقية للإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة)) ، وقد حاولت إظهار المعاني القرآنية التي جاءت مؤكدة على خلافة الإمام علي (عليه السلام) وأحقيته في ذلك كما وَرَدَ في سورة المائدة ، فضلاً عمّا وَرَدَ في كتب التاريخ ، وهذا ما حاول البحث بيانه في مبحث الدلالة التاريخية لكثير من مفردات الخطبة ، فكانت تلك المفردات مفاتيح لمغالق تاريخية أشار إليها نص الخطبة ، فضلاً عما استشهد به الإمام علي (عليه السلام) من شعر يمكن عدّه خطاباً تاريخياً يحاكي العقل العربي على وفق ما فيه من البيان والدلالات التاريخية المتعلقة بالموضوع ، وهذا دور مهم للشواهد ولا سيما القرآنية والشعرية .

فضلاً عمّا سبق حاول البحث بيان دلالات النص من خلال المعاني اللغوية لكثير من مفردات الخطبة وجذورها اللغوية ، وهي معروفة عند العرب ومألوفة السماع، وهذا كان مثل استعمال القرآن الكريم للغة ألفها العرب بل كانت لغتهم الرئيسة فعجزوا عن أن ينظموها مثلما نظمها القرآن الكريم ، وهذا يشير في نص الخطبة الى معرفة السامعين آنذاك بمعاني ودلالات ما ذكره الإمام علي (عليه السلام) في خطبته مع ما شاهدوه من أسباب ووقائع مجريات قول النص .

هذا جعل السمات الفنية للخطبة تبدو في صورة فنية أشهمت من خلال المجاز، التشبيه ، والاستعارة ، والكناية أن تبيّن كثير مما أراد الإمام علي (عليه السلام) قوله وبيانه في نصِّ الخطبة.

بعدما تقدّم من الحديث عن الجوانب الدلالية وما حملته بين طيّاتها من معانٍ ، فإن ذلك قد شخص في عنوان الخطبة الخارجي والداخلي لها ، وهذا بحدِّ ذاته يعبّر عن انطلاق العنان أو الكلمة المفتاح في الخطبة الشقشقية من روح النص وما فيه من إشارات ودلالات مترابطة ومتضامّة مع بعضها لتفتح لنا مغاليق الكلمات والعبارات في تلك الخطبة المباركة ...

هوامش البحث

([١]) سورة المائدة : الآية ٦٧.

([٢]) الأدب السياسي في صدر الاسلام ١٤٢.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٧.

([٤]) سورة المائدة : الآية ٣.

(٥) ينظر : دروس في العقيدة الاسلامية : ٢ / ٣٣٣-٣٣٤.

(٦) المصدر نفسه .

(٧) سورة آل عمران : الآية ٤٥.

(٨) سورة إبراهيم : الآية٢٤ – ٢٦.

(٩) السيميوطيقا والعنونة : د. جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، مج٥ ، ع٣ ، ١٩٩٧ ، ص٩٦ .

(١٠) ينظر : هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل : د. شعيب حليفي ، ط١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٥م ، ص١١ .

(١١) ينظر : الطاقة الدلالية للعنوان في القصة القصيرة : د. خالد حسين ، جريدة الاسبوع الادبي ، ع١٠٧٠ ، ٢٠٠٧م.

(١٢) السيميوطيقيا والعنونة : د. جميل حمداوي ، ص٩٦

(١٣) ينظر : العنوان في الشعر العراقي الحديث – دراسة سيميائية : حميد الشيخ فرج ، ط١ ، مطبعة البصائر ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م ، ص٤٤ .

(١٤) ينظر : الطاقة الدلالية للعنوان في القصة القصيرة : د. خالد حسين .

(١٥) في نظرية العنوان : ط١ ، دار التكوين للطباعة والنشر ، ٢٠٠٧م ، ص٨٢ .

(١٦) دينامية النص : ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٦م ، ص٧٢ .

(١٧) ينظر : في جمالية الكلمة : ١٥-١٦ .

(١٨) المستويات الجمالية في نهج البلاغة : ١١٧.

(١٩) ينظر : شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ٤٢٥/١.

(٢٠) ينظر : شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد : ٦٩/١.

(٢١) ينظر : لسان العرب : ١٦٧/٧-١٦٨.

(٢٢) من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : (٩٢-٩٣).

(٢٣) لسان العرب : ١١ / (٢١١-٢١٢).

(٢٤) الصحاح في اللغة والعلوم : ٢ / ٣١٧.

(٢٥) في ظلال نهج البلاغة : ١ / ١٩٧.

(٢٦) ينظر : المستويات الجمالية : ١٥٤-١٥٥.

(٢٧) شرح نهج البلاغة :أبن ميثم البحراني : ١ / ٤٢٦.

(٢٨) من بلاغة الإمام علي (عليه السلام : ٩٤١ ، ٩٨.

(٢٩) ينظر : المستويات الجمالية : ١١٥.

(٣٠) المستويات الجمالية: ١١٧.

(٣١) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٨.

(٣٢) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ١ /١٩٧.

(٣٣) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ١٠٠.

(٣٤) ينظر : لسان العرب : ١١ / ٤٦-٤٧.

(٣٥) ينظر : الصحاح في اللغة والعلوم : ٢ / ٢٨٠.

(٣٦) في ظلال نهج البلاغة : ١/١٠٠ .

(٣٧) لسان العرب : ٧ / ١٩٣-١٩٤.

(٣٨) ينظر : غريب نهج البلاغة : ٢٣٢-٢٣٣.

(٣٩) لسان العرب : ٦ / ٢٨٢-٢٨٣.

(٤٠) شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١/٤٢٠ .

(٤١) ينظر : شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١ / ٤٢٥.

(٤٢) سورة القصص : الآية ٨٣ .

(٤٣) شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١/٤٢٠ .

(٤٤) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ١ / ٢٣٦.

(٤٥) المستويات الجمالية : ١١٤.

(٤٦) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢١٣-٢١٤.

(٤٧) ينظر : شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١ / ٤٢٦.

(٤٨) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢١٧.

(٤٩) شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١ / ٤٢٩.

(٥٠) ينظر : المصدر نفسه .

(٥١) ينظر : نهج البلاغة : شرح الشيخ محمد عبده : ١ / ٣٢.

(٥٢) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢٢٥.

(٥٣) نهج البلاغة : ٤٨ ، ٥٦٥-٥٦٦.

(٥٤) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢٢٨.

(٥٥) سورة هود : الآية ٥٨ .

(٥٦) شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد : ١ / ٨.

(٥٧) ينظر : نهج البلاغة : ٤٨ – ٤٩ ، ٥٦٦.

(٥٨) لسان العرب : ١١ / ٤٦-٤٧.

(٥٩) نهج البلاغة : شرح الشيخ محمد عبده : ١ / ٣٣.

(٦٠) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢٢٩-٢٣٠.

(٦١) ينظر : غريب نهج البلاغة : ٥٧.

(٦٢) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢٣٧.

(٦٣) نهج البلاغة : شرح الشيخ محمد عبده : ١ / ٣٥.

(٦٤) ينظر : نفحات الولاية : ١ / ٢٤٠.

(٦٥) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٦٦) شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد : ١ / ٦٨.

(٦٧) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ١/ ٢٤٥ – ٢٤٦.

(٦٨) ينظر :نفحات الولاية : ١

(٦٩) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٢١٠ ، ٢١٣.

(٧٠) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٢٢٨.

(٧١) ينظر : المستويات الجمالية : ١١٠ – ١١٢.

(٧٢) من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٣.

(٧٣) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٣-٩٦.

(٧٤) ينظر : شرح نهج البلاغة : محمد عبده : ١ / ٣١.

(٧٥) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٧.

(٧٦) ينظر : شرح نهج البلاغة : محمد عبده : ١ / ٣١.

(٧٧) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٧-٩٨.

(٧٨) ينظر : شرح نهج البلاغة : أبن ابي الحديد : ١ / ٥١.

(٧٩) ينظر : شرح نهج البلاغة : أبن ابي الحديد : ١ / ٥١ .

(٨٠) ينظر : من بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٩٩ ، ١٠٢-١٠٥.

(٨١) ينظر : المصدر نفسه: ١٠٦.

(٨٢) ينظر : شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني : ١ / ٤٤١-٤٤٢.

(٨٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : المصادر والمراجع :

١. الأدب السياسي في صدر الإسلام : عبد الرسول غفار : ط١ – دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢. دروس في العقيدة الإسلامية : محمد تقي مصباح اليزدي : ط٤ – مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع– ١٤٢٤هـ.ق.
٣. دينامية النص : د. محمد مفتاح ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٦م .
٤. سلسلة أصول الدين : السيد عبد الحسين دستغيب : ترجمة أحمد القبانجي – ط١ – دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – بيروت– ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
٥. شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد – ط٣ – دار الفكر للجميع – بيروت – لبنان – ١٣٨٨هـ.
٦. شرح نهج البلاغة : الشيخ محمد عبده – (د.ط) – منشورات المكتبة الأهلية – بيروت – (د.ت).
٧. شرح نهج البلاغة : كمال الدين بن علي بن ميثم البحراني – ط١– المطبعة : وفا– ١٤٢٧هـ.
٨. الصحاح في اللغة والعلوم : تجديد صحاح العلامة الجوهري المصطلحات العلمية والفنية للمجاميع والجامعات العربية – تقديم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي : إعداد وتصنيف : نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي– ط١ – دار الحضارة العربية – بيروت – ١٩٧٤م.
٩. العنوان في الشعر العراقي الحديث – دراسة سيميائية : حميد الشيخ فرج ، ط١ ، مطبعة البصائر ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م .
١٠. غريب نهج البلاغة : د. عبد الكريم السعداوي – ط١ – منشورات فرصاد– طهران – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
١١. في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية) الأستاذ الدكتور : حسين جمعة – منشورات إتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٢م.
١٢. في ظلال نهج البلاغة : العلامة محمد جواد مغنية – ط١ – دار الكتاب الاسلامي– ١٤٢٥هـ – ق . ٢٠٠٥م.
١٣. لسان العرب : الإمام العلامة ابن منظور – بيروت – لبنان (د.ت) .
١٤. المستويات الجمالية في نهج البلاغة : نوفل أبو رغيف – ط١ – بغداد – أعظمية – ٢٠٠٨م.
١٥. من بلاغة الإمام علي في نهج البلاغة : عادل حسن الاسدي – ط١ – مؤسسة المحبين– إيران – قم – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
١٦. نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة : ناصر مكارم الشيرازي – مكتبة الروضة الحيدرية – ١٩٩٦م.
١٧. نهج البلاغة : د. صبحي الصالح – ط١ – بيروت – ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.
١٨. هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل : د. شبيب حليفي ، ط١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٥م .

الدوريات :

– السيميوطيقا والعنونة : د. جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، مج٥ ، ع٣ ، ١٩٩٧م .

– الطاقة الدلالية للعنوان في القصة القصيرة : د. خالد حسين ، جريدة الأسبوع الأدبي ، ع١٠٧٠، ٢٠٠٧م
.